الفصل الأول

الأسس الفكرية التي قامت عليها الحضارة الغربية المعاصرة

لم توجد الحضارة الغربية المعاصرة من فراغ ، بل كانت هناك سلسلة متتابعة من المفكرين الذين وضعوا الأفكار التى قامت على أساسها هذه الحضارة ، وكانت هذه الأفكار بمثابة الشعلة التى أضاءت الطريق لمن وضعوا هذه الأفكار موضع التنفيذ .

ولم تكن الأفكار التى قامت عليها الحضارة الغربية وليدة جيل واحد من المفكرين ، بل تتابعت أجيال المفكرين والفلاسفة جيلاً بعد جيل كل واحد يضيف إلى ما سبقه . بل إن بعض الأسس الفكرية التى قامت عليها الحضارة الرأسمالية وضع لبناتها الأولى فلاسفة عاشوا قبل الميلاد ، ثم تم إحياء فكرهم بعد مرور أزمنة طويلة بعد الميلاد . فهناك من جدد هذه الأفكار وأضاف إليها ما يراه فى ضوء حياته المعاصرة . لذلك حاولت تتبع هؤلاء المفكرين ابتداء من أفلاطون قبل الميلاد حتى نيتشه فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد . كل هؤلاء الفلاسفة والمفكرين كانوا سلسلة واحدة أسست لهذه الحضارة التى نعيش الآن فى ظلها ، والتى فرضت علينا رؤيتها للحياة سواء الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الأخلاقية تحت زعم أنها حضارة عالمية يجب العيش طبقا لمبادئها حتى تصبح الحياة جنة الفردوس المفقودة على الأرض .

ولا يتسع المجال هنا لذكر كل الفلاسفة والمفكرين الذين وضعوا الأسس الفكرية للحضارة الغربية ، لذلك تم اختيار بعضهم على سبيل المثال وليس الحصر .

1- أفلاطون (427-347ق.م):

كان يحب أن يرى العدالة قائمة على وجه الأرض، الاستقامة فى الفرد والعدالة فى الدولة. فهذه الدولة الخيالية التى يهفو إليها قلبه، يصفها فى **"الجمهورية"**، أول كتاب فى التاريخ يصف المدينة الفاضلة كما تخيلها أفلاطون.

وإذا أردنا أن تكون عندنا فكرة عن جمهورية أفلاطون، فعلينا أن نلم بحياة مواطنيها منذ يولدون. فمواليد الجمهورية ثمرة للتزاوج المشاع، فيتصل خير الرجال بخير النساء، تحقيقا لغرض واحد، وهو إنجاب نسل رفيع. وتكون هذه النسوة لهؤلاء الرجال على الشيوع. فالجمهورية يجب أن تخلو من الزواج الفردى، والأسر الخاصة. ولا يكاد الأطفال يولدون حتى يعزلوا عن آبائهم ويودعوا محاضن الدولة، ويجب ألا يعرف الآباء أبناءهم، والأبناء آباءهم. وبهذه الوسيلة دون سواها، تستطيع الأخوة العالمية أن تنتقل من عالم النظريات إلى الواقع ، فكل فرد من هذه الدولة يمكن أن يكون أخا لكل إنسان آخر.

وليس على الآباء أن يقصروا نشاطهم الجنسى على شركاء حددوا لهم ، فلهم بعد أن ينجبوا أطفالا للدولة أن يتحللوا من هذا القيد بشرط أن يبذلوا قصارى جهدهم فى إجهاض أى جنين يمكن أن يخرج إلى الحياة من هذه السبيل.

إذاً فأمر الحب المتحرر (**الشيوع الجنسى**) متروك لتقدير الفرد، ذكرا كان أو أنثى، لأن حياة المواطنين الخاصة يجب ألا تكون من أعمال الدولة ، وإنما يهمها ألا يتعدى المواطنون بعضهم على بعض فى سعيهم إلى سعادتهم الفردية.

أما عن أطفال الدولة فإنهم لا يكادون يولدون حتى يودعوا محاضن الدولة، ويتلقوا تعليما واحداً حتى سن العشرين ، وهذا التعليم التمهيدى يتكون فى معظمه من الألعاب الرياضية، والموسيقى لتنمية الجسد والعقل. ويختلط الجنسان فى المدارس التى يتلقون فيها هذه الدراسة. وعلى البنين والبنات أن يتخففوا من ملابسهم جميعا حين قيامهم بالتمرينات الرياضية. فمواطنو الجمهورية – كما يقول أفلاطون- يكفيهم ثوب الفضيلة شعارا، ويجب ألا يستشعروا الخجل الكاذب أو السخرية حين يرون الجسم البشرى.

تعليم الأطفال إذاً لابد وأن يخلو من الحياء المصطنع، وكذلك يجب أن يخلو من العسر والإرهاق، فيكون التعليم لذة ومتعة لا تعذيبا وعنتا. وهكذا يسير تعليم الأطفال حتى سن العشرين، ثم يعقد لهم امتحان عام عسير ، ومن ثبت عجزه عن متابعة التعليم سلك فى الطبقة الدنيا، طبقة الزراع والصناع ورجال الأعمال أولئك هم "معدن الدولة الخسيس".

أما من نجح فى الامتحان فيواصل التعليم حتى سن الثلاثين، فيتعلم الحساب والهندسة والفلك بغرض تنمية حاسة الجمال فقط لا لفوائدها العلمية . وبعد دراسة هذه العلوم حتى سن الثلاثين يعقد امتحان تصفية جديد. فمن نجح واصل دراسته، ومن أخفق سلك فى الطبقة الوسطى، طبقة الجند حراس الدولة، الذين يدافعون عن الدولة وليس للعدوان على الآخرين.

أما ذوو العقول الأسمى الذين تتمخض عنهم التصفيتان، فيتخصصون لدراسة الفلسفة، وهم رجال ونساء يتدربون على ولاية شئون الحكم فى الدولة. وبعد دراستهم للفلسفة لمدة خمس سنوات ينتهى التعليم النظرى ، وعليهم آنذاك أن يتدربوا على شئون الحكم ، فينزلوا من علياء تأملاتهم إلى ما يقوم به الناس فى الحياة اليومية، فلابد أن يتعلموا الحياة قبل أن يسمح لهم بالمشاركة فى توجيهها، ومن أجل هذا يقضون خمسة عشر عاما، يتحتم عليهم فيها أن يندمجوا فى الحياة العملية. حتى إذا بلغوا الخمسين يكونون قد أكملوا العدة للقيام بدور الملوك الفلاسفة، فليس يجدر بحكم الجمهورية المثالية غير الفيلسوف.

إن الدولة المثالية يجب أن يتولى أمرها خير الناس ، وهم الفلاسفة ، ومن هؤلاء الفلاسفة تتكون أعلى طبقة، ولها على الطبقيتين الأخريين حق الطاعة فى جميع الأحوال. ويجب أن يحرم اقتناء المتاع على هؤلاء الحكام، ضمانا لأمانتهم، فكل ما يملكون مشاع بينهم، وهم يأكلون طعامهم فى مطاعم عامة، وينامون فى ثكنات وليس لهم غرض خاص، فهم لذلك يمتنعون عن الرشوة، ولا يطمعون إلا في شيء واحد هو إقامة العدل بين الناس والعمل على بقائه أبد الدهر.

هذه هى الجمهورية الفاضلة كما تخيلها أفلاطون بدايتها الجنس الحر المشاع بين الرجال والنساء ، خالية تماما من الحياء بين الرجال والنساء ، فهل هذه هى المدينة الفاضلة؟[1].

2- أبيقور (342ق.م- 270ق.م)[2] :

يرى أبيقور أن الهدف من العيش أن نستمتع بالحياة، ولكننا لن نستمتع بالحياة ما لم نفهمها، فيجب أن نفهم العالم الذى نسكنه، وندرك طبيعة سكانه، ومعنى ذلك أننا يجب أن نعرف من نكون؟ ولماذا صرنا إلى ما نحن عليه؟

وعلينا قبل كل شىء أن نفهم فى وضوح من نحن ، فالإنسان – كما يرى أبيقور- ليس ابنا لإله كريم ، بل ربيب طبيعة لايهمها من أمره شىء .فليست الحياة خطة رسمتها يد فنان مقدس، وإنما هى حدث طارئ فى كون آلى . ولكننا إذا شئنا يمكن أن نجعل منها حدثا سعيدا أو ممتعا على الأقل، وذلك بأن نحرر عقولنا من الخوفين الكبيرين اللذين يفسدان الحياة على الإنسان وهما : الخوف من الآلهة، والخوف من الموت.

فليس هناك أى داع للخوف من الآلهة ، فنحن لسنا لهم عبيداً ولا سلطان لهم علينا، لأنهم لم يخلقونا، بل هم لم يخلقوا شيئا فى الواقع. والكون لم تصنعه يد الله، بل جاء نتيجة عارضة لحركة الذرات خلال الفضاء اللانهائى . وهذا يؤدى بنا إلى نظرية الذرة عند أبيقور، حيث يرى أن هناك مواد للبناء من ذرات لانهاية لها ، أى لبنات ذرية لانهاية لها تُبنى منها العوالم . وأن المجموع الكلى للمادة ثابت ، أى أن مجموع اللبنات التى يبنى منها الكون ثابت على الدوام لا يتغير . فلا يمكن أن يضاف إليه شىء من لا شىء، أو ينقص منه شئ فيتحول إلى لا شىء.

---

(1) هنرى توماس ودانالى توماس، أعلام الفكر الأوربى،ترجمه عثمان نويه، كتاب الهلال، دار الهلال ، العدد 313، محرم 1397هـ/يناير 1977، ص 11-29.

(2) أعلام الفكر الأوربى ، هنرى توماس ودانالى توماس،ترجمه عثمان نويه، الجزء الأول، دار الهلال، العدد 313 يناير 1977، ص ص 44-57.

فالكون إذاً يتركب من لانهائية خالدة من شيء ما..... أى من الذرات المادية ، وهذه الذرات لا تولد ولا تموت ولا تتحول ، إنما تتحرك أبدا إلى أسفل خلال الفضاء اللانهائى، ولكنها فى حركتها إلى أسفل تحيد عن الجادة من آن لآخر، وتتكثف فتتكون منها مادة النجوم والأرضين والأقمار والشموس والأكوان.

هذه الذرات تختلف وزنا وشكلا وحجما، وهذا التنوع يفسر اللانهائى للأشياء التى يتكون منها العالم الذى نعيش فيه. على أن العالم الذى نعيش فيه يوجد غيره الكثير من العوالم الأخرى لا تقل عنه سعة وروعة وعجبا.

وهذه الحركة الدائرية للذرات تجرى بتلقائية، لا تهديها يد، لأن الآلهة نفسها مخلوقات آلية نشأت من تكثف الذرات ، وإن كانت ذراتها أدق وأخفى من ذرات البشر ، وهى تحيا فى سماواتها الشاسعة، وهى تنعم بخلود مبارك، لا يحفل مطلقا بسرور البشر وأساه وصراعه على الإطلاق . فحياة الإنسان – كما يرى أبيقور- مهزلة بالغة الجنون، لا يمكن أن تنبت فى ذهن قصاص عاقل جدير بأن يقام لتكريمه معبد، ثم ينزل على المعبد صاعقة من السماء تدمره! وأن يعُقل أن إلها رحيما يبرئ طفلا صغيرا من مرض خطير ليسلمه إلى موت أبشع فى ميدان القتال!

إنما يستمتع الآلهة بنعيم مقيم فى فردوسهم بين الأكوان، لأنهم قد تحرروا من هموم البشر وتبعاته وآلامه ، وما هو مبارك خالد لا يستوى عنده الابتسام والعبوس، والعطف والقسوة، قد برئوا من المتاعب، فباعدوا بينهم وبين متاعب البشر أقصى ما يكون البعد.وإذا كان الآلهة لا يحفلون بشيء من أمر الناس، فلماذا يحفل الناس بأمر الآلهة.

يرى أبيقور أن الموت هو نهاية وجودنا ، فالروح تموت كما يموت الجسد ، لأنها مركبة من ذرات ، وأنها نوع من الطاقة السائلة تملأ الجسد كما يملأ الماء الوعاء. وتظل الروح متماسكة ما بقى الجسد حتى إذا تصدع انسكبت الروح السائلة، وانحلت إلى قطرات منعزلة هى ذراتها الفردية. فالروح تولد مع الجسد وتموت بموته.

لقد عجزت نظرية أبيقور عن إقناع العقل الحديث ، كما أنها عجزت فعلا عن إقناع كثير من العقول القديمة. لأنها تغفل عن أمرين هما: **الأول** أنها لا تفسر كيف تتمخض

حركة المادة غير الواعية عن فكر واع، **والثانى** أنها لا تفسر فكرة الحركة نفسها فى بداية أمرها ... ماذا يحرك الذرات، ومن ذا الذى يحركها؟ولماذا يحركها؟ أو كما قال أحد العلماء الأوربيين فى بساطة " إذا كان العالم يدور فمن الذى يديره" ؟.

3- دافيد هيوم (1711م – 1776 م):

من أصل اسكتلندى ، عمل رئيسا لمكتبة كلية الحقوق بأدنبره . ولقد تضخم جسمه جداً من طول الجلوس إلى عمله الذى أصاب منه مالا وفيراً ، وأصبح فى المجتمع علما . . أو أسدا كما يقولون . . ولكنه أسد غاية فى الوداعة والسلاسة والبدانة. وكان إذا سافر فى عربة فمالت إلى جانب مال بجسمه على رفاقه فملئوا رعبا .

يقول أصدقاء دافيد هيوم عنه: " إن دافيد – على كرم سجيته – يحب أن يصدم الناس فى آرائهم وأنه غير مؤمن " حيث حضر مرة العشاء فى منزل صديق له من الأتقياء ، فغادر المائدة فجأة مصرًّا على ألا يتناول طعامه فى حضرة عدو .

* " عدو ؟ "

* " نعم " أجاب دافيد هيوم فى إصرار ، مشيرا إلى الكتاب المقدس وكان فوق المنضدة " خذه بعيداً " .

* ولكنك يا دافيد اسكتلندى ، وكنت غاية فى الاعتدال والطيبة ، وكنت إنسانا هادئا معتدل المزاج " .

فأجاب دافيد " لازلت رجلا طيبا معتدل المزاج ، عاقلاً ، وفاضلا ، مقتصداً ، منظما ، هادئا ، طيب النفس . . . سيئ الخلق " .

وكان قد ألف العديد من الكتب منها كتابان غاية فى الهدم: أحدهما يدافع فيه عن الانتحار ، والآخر ينكر فيه خلود الروح . وقد نشر رسالة مطولة فى التاريخ الطبيعى للدين " وفيها تناول بالنقد الحجج التى تؤيد الخلود فى تفصيل لم يُسبق إليه ، فدحضها واحدة بعد واحدة ، وأعلن " أن العالم كله إنما يمثل فكرة طبيعية عمياء . . تُلقى من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية بأبنائها المشوهين والمجهدين " وقد سار فى هذا

الكتاب على مألوف عادته فلم يظهر أى احترام للمسيحية ، بل ذهب إلى أن خير وسيلة يصير بها الإنسان مسيحيا حقاً أن يكون متشككا . **أما عن الله ، فعلى فرض وجوده – كما يقول هذا المتشائم المتهلهل – فمن التناقض أن تنتظر منه أى عطف ، لأنه إن كانت له ميوله البشرية ، فلابد أن به عيوبا بشرية.. وأهم هذه العيوب " الإغضاء التام عن المخلوقات التى تقل عنه شأنا " . لقد بهت الجمهور الإنجليزى لهذه الكلمات ، وقال أحد المطارنة متعجباً: "أظن أنى لم أر قط عقلا أوفر من هذا شرا، أو أمعن إصرارا على الشر".**

على أن دافيد هيوم الذى مقته الإنجليز ، مالت إليه نفوس الفرنسيين، واستقبل استقبالا حافلا فى البلاط الملكى بفرنسا حين عين سفيرًا لإنجلترا فى فرنسا .

وفى فرنسا وقع هذا المتشكك العظيم **" دافيد هيوم "** فى حب **" جان جاك روسو"** واحتضنه صائحا **" إنى أومن بجان جاك روسو "** ،وكان روسو فذا فى سوء سمعته ، فقد سبق فى هذا المضمار كل مجانين الفلسفة فى هذا القرن . إلا أن الود بينهما لم يدم طويلا، فقد تشاجرا، وكان لهذا الشجار صدى دوى فى أرجاء العالم[1] .

4 - ميكافيلى (1469م – 1527):

يرى ميكافيلى أن هناك فرقا شاسعا بين الحياة كما هى فعلا، والحياة كما ينبغى أن تكون . ثم يقرر بوضوح تام أن ولاءه التام لما هو قائم فعلا ولا يهتم إطلاقا بما ينبغى أن يكون. لذلك يرى أن من يفعل الخير سيعود عليه بالوبال، وسيورده المهالك، أما من يعمل الشر ويجيد استخدام وسائله فهو من الناجين . وهذا يعنى التخلى تماما عن أى هدف إنسانى أو أخلاقى نبيل، ويصبح الهدف النهائى مسألة تحددها كل مؤسسة أو جماعة أو دولة حسب رغباتها ومصلحتها أو حسب رغبة القائم عليها . وبذلك تنفصل السياسة عن الأخلاق تماما مثل الانفصال بين العلم والأخلاق ، والصناعة

(1) لمزيد من التفاصيل : هنرى توماس ودانالى توماس ، أعلام الفكر الأوربى ، ترجمه عثمان نويه ، دار الهلال ، العدد 313 ، محرم 1397هـ / يناير 1977 م ، ص ص 155-175.

والأخلاق ، والمجتمع والأخلاق ، والفرد والأخلاق ، وباختصار تنفصل كل أمور الحياة الدنيا تماما عن الأخلاق، وهذا هو جوهر الحداثة الغربية المعاصرة.

إن ميكافيلى يقف على طرف النقيض من الأخلاقيات المسيحية التقليدية، فهو يرى أن الأخلاق التى يجب أن تسود تتمثل فى : "رهبة خيرٌ من محبة" – قلد الثعلب والأسد" – لا تكف عن التظاهر والكذب" – لاتتوانَى عن ارتكاب الشرور" وهكذا إلى آخر الصفات الواقعية التى تدل على أن الإنسان الذى يتحلى بها واقعى وعلمى وموضوعى . إن المطلوب هو أخلاق تمجد القوة والسلطة والاستقلال والطموح. وبذلك خلق ميكافيلى صورة جديدة للأخلاق الوثنية، التى تفصل تماما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

وبناء على ذلك تصبح الدولة قيمة أخلاقية مطلقة تتخطى كل القيم الأخرى ، بمعنى أن تتكيف الأخلاق مع مصالح الدولة لا أن تخضع الدولة للقيم الأخلاقية ، وهذا هو جوهر فصل الدين عن الدولة ، ومن ثم فإن السياسة نشاط علمى لا علاقة له بالأخلاق.

5- توماس هوبز الإنجليزى (1577م – 1679):

نظر إلى المجتمع المعاصر له فرأى " مجتمع السوق " غابة من الصراع التنافسى، ورأى أنه لا يوجد غير الصفقات بدلا من المجتمع ، ولا يوجد سوى حيوانات ذات غرائز أساسية. فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، والمجتمع هو ساحة قتال الجميع ضد الجميع . إن البشر من وجهة نظر هوبز ما هم إلا آلات تطرح مقدار الألم الممكن من الفائدة المادية الممكنة قبل أن تسلك أى سلوك . وأن الدافع وراء أى سلوك بشرى ليس حب الآخرين، بل هو حب الإنسان لذاته فقط . فكل إنسان يحاول أن يزيد ثروته، أو سلطته، أو نفوذه إلى أقصى حد ممكن . والقيم الأخلاقية ليس لها أى معنى إلا فى إطار إشباع هذه الرغبات ، وهذه هى الغابة.

حيث يحل الثمن محل القيمة، ولهذا السبب لابد من الاتفاق على قواعد المباراة وعلى السلطة التى تقوم بتطبيقها. وأن الدولة المطلقة هى الضمان لتطبيق الإجراءات و سلامتها، وأن هذه الإجراءات هى كل شىء لأن كل القيم الأخلاقية المطلقة قد سقطت ، وأصبح الهدف الوحيد هو التمسك بالإجراءات ، والصورة المجازية الكامنة للسياسة الجديدة هى "السوق " .

ولأن الحضارة الغربية ؟ حضارة إجراءات تتعامل مع الواقع الموضوعى، ومع السطح القابل للقياس، فإنها لا تتعامل إلا مع الإنسان الخارجى (**ظاهر الإنسان**) ، أما الإنسان الداخلى (**القيم الأخلاقية**) فهذا أمر متروك للفرد كُلّ وشأنه.

فالإجراءات الخارجية موضوعية محسوبة مقاسة ، أما عالم الحب والكره – عالم التعامل بين الأفراد كبشر – فأمر متروك للذوق الشخصى أو لوسائل الإعلام . لذلك فإن الحضارة الغربية الحديثة التى وضعت إنسانا على سطح القمر بكفاءة شديدة، غير قادرة على وضع رجل داخل أسرة مستقرة ، وغير قادرة على أن تضع حلاً لانتشار المخدرات أو الأمراض السرية . إن ظاهرة الأمهات غير المتزوجات وأولاد السفاح لا تسبب أى انزعاج لأحد فى الحضارة الغربية الحديثة ، إذ أن الحل دائما جاهز وهو اتخاذ الإجراءات اللازمة مثل إقامة ملاجئ للأطفال وخلق جو طبيعى لهم حتى لا يشعروا بغياب الأب .إن الحضارة الغربية القائمة على الإجراءات ترصد الواقع ولكنها غير قادرة على تغييره بشكل ينهض به، فهى لا تجابه الواقع بقيم أخلاقية ثابتة أو مثل عليا مستقرة ، بل ما تقرره الأغلبية يصبح هو الحقيقة والخير، طالما اتُّبعت الإجراءات السلمية فى الوصول إلى القرار.

ويرى كثير من علماء الاجتماع والاقتصاد فى الغرب أن هذه الإجراءات ضرورية بل هي حتمية لإنجاز عمليات التحديث. ومن ثم وضع تعريف للحداثة فى الغرب بأنها مقدرة الإنسان على تغيير القيم بعد وقت قصير للغاية ، أى إن حداثة الإنسان تكمن فى مقدرته على التغير بسرعة وأنه يعيش فى بيئة كل ما فيها يتغير . ومن ثم يصبح التغير فكرة محورية فى الفكر الغربى.

لقد ترسخت فكرة التغير فى الوجدان الغربى ، إذ أصبح الإنسان الغربى مؤمنا بـأن **" التغير هو أحد مقومات الحياة أو هو المقوم الوحيد فـى الحقيقـة ، وأن التغير هو اليقين الوحيد "** .

إن هذا الإيمان بالتغير كمطلق وحيد ويقين أوحد وغايـة وهـدف، التغـير الكامـل دائما وأبدا، قد يؤدى إلى لا شىء ، أو لعله قد يؤدى إلى دمار الإنسان والكرة الأرضـية إن لم تتم عمليـة التغـير داخـل حـدود، وإن لم يكـن لهـا عقـل وروح ، وإن لم تفـترض مركزية الإنسان فى الكون ، واعتبار الإنسان هو الغاية ، وأن الهدف من وجودنا فى هذا الكون هو تحقيق أمنياتنا الإنسانية التى تتجاوز حدود المادة المتغيرة.

ولكننا نتساءل كيف يمكن لنا أن نعيش معًا دون أن تكون هناك قـيم عامـة نـستند إليها إن اختلفنا، وإن رأينا البشر يتصرفون مرة أخرى مثل القرود ، قيم تمكننـا مـن أن نسمى الإنسان إنسانا والقرد قرداً؟ .

6- نيتشه الألمانى (1844م – 1900م) :

ولد نيتـشه عـام **1844**م وإن أجـداده لأبيـه ، كـان معظمهـم مـن رجـال الـدين المسيحى، كما أن أمه من أسرة إيلر وهى بدورها أسرة شغل كثير من أفرادهـا مناصـب دينية ، وهكذا كان الدين يلعب دوراً أساسيا فى طفولة ذلك الذى أسمى نفسه فيما بعد **"عدو المسيح"** والذى كرس حياته ليوجه إلى القيم الدينية أعنف نقد تعرضـت لـه خلال ألفى عام . وكان فى أول حياته ينوى التخصص فى اللاهوت.

وفى عام **1888**م ظهرت عليه علامات الجنون الحقيقية ، وقضى نيتشه ما يقرب من اثنى عشر عاما فى ثيمار بعيداً كل البعد عن عالم العقلاء، إلى أن مـات فى **25** أغـسطس عام **1900**م.

فى عبارتـه المـشهورة" **إن الله مـ ـات**" لا يعـبر عـن موقفـه الشخـصى فى الإلحـاد فحسب، بل يعبرعن الاعتقاد بأن العالم الآخر، بكل صوره الفلسفية، قد فقد دعامتـه ، وانهار من أساسه. وكان نيتشه يهدف من وراء فكرة **"موت الإله"** إلى إفساح الطريق

أمام الإنسان، حتى يمكنه أن يحقق كل ما تتسع لـه جهـوده . أمـا التجـاء الإنـسان إلى الدين فإنه يرجع إلى أنه سئم غيره من الناس، ورأى حياته عـاجزة، فـسعى إلى مـا هـو أعلى منها. وهو فى هذا يقـول **"إن العنصر الدينى من أخطاء الطبائع العليا التى تعذبها صورة الإنسان المنفرة"**.ونيتشه، وإن كان ينفر بدوره من الـصورة الحاليـة للإنسان ، فإنه لا يريد أن يكون هذا النفور مـن أجـل أيـة حقيقـة عليـا، بـل يريـد أن يتجاوز الإنسان ذاته فحسب . فهو ينظر إلى فكرة الله "سبحانه وتعالى" على أنها تمثـل الحد النهائى الذى لا تستطيع قدرة الإنسان الخالقـة أن تتعـداه، فهـو إذن عقبـة ينبغـى إزالتها. وهذا هو معنى كلمته المـشهورة**"لو كان هناك إله، فكيف كنت أطيق ألا أكون إلها..وبالتالى ليس ثمة إلـه"**. ففـى رأيـه أن بـين الله والإنـسان فى الخلـق تعارضا، ولابد لكى يتسع الطريق أمام قوة الإنسان الخالقة من أن تزاح كـل العقبـات من طريقه.(1)

يرى نيتشه أن الروح الدينية ظاهرة منحرفـة، وأن العقيـدة الدينيـة تحـط مـن قـدر الإنسان، ذلك أن المتدين يؤمن بالوحى أى أن أفكارا تهـبط مـن مـصدر يعلـو عليـه، بحيث لا يكون ذهنه ما هو إلا أداة تتلقـى هـذه الأفكـار سـلبيا فحـسب، وهـذه هـى المشكلة الكبرى فى الدين: "فكيف يتسنى للمرء أن ينظر إلى آرائه هـو عـن الأشـياء ، على أنها وحى؟ تلك هى مشكلة أصل الأديان" ففى كل عقيدة دينية كان هناك رجـل يؤمن بالوحى، بحيث إنه عندما كوّن تصوراً شاملا عن العالم ، لم يستطع أن يتصور أن يكون هذا النظام والجمال من صنع ذهنه هو، فينـسبه إلى قـوة عليـا (**الـ ـوحى**) . وهـو بذلك يضفى على رأيه مزيدا من القـوة ويجعلـه بمنـأى عـن النقـد والـشك أى يجعلـه مقدساً . "حقا إن مكانة المرء ستهبط عندئذ ،فيصبح مجرد أداة، ولكن رأيه سينتصر فى آخر الأمر، حين يصبح فكره إلهياً ".

وينتقد نيتشه فكرة الألوهية فيقول:"إن وجود الله ذاته كـان يغـدو مـستحيلا لـو لم يوجد أناس حكماء، ويتساءل " أيكون إلها خيراً ذلك الذى يعلم كـل شـىء ، ويقـدر

(1) فؤاد زكريا، نيتشه ، سلسلة نوابغ الفكر الغربى ، دار المعارف، فبراير 1956، ص 40.

على كل شيء ، ولا يعبأ مع ذلك بأن تكون مقاصده مفهومة لمخلوقاته.... ألا يكون إلها شريراً ذلك الذى يملك الحقيقة ، ويرى العذاب الأليم الذى تعانيه البشرية من أجل الوصول إليها؟"

لقد وجه نيتشه نقداً لاذعاً للأديان بوجه عام والمسيحية وفكرة الخلاص بوجه خاص، مؤكداً أن النظام الذى سارت عليه الكنيسة بما فيه من قساوسة، ولاهوت، وطقوس ، هو ما كان يحاربه المسيح بوجه خاص ، وهو الذى صبغ المسيحية بالصبغة الحالية ، وينسب كل هذه التغيرات إلى عصور تالية، من أهمها القديس بولس. وهو يرى فى المسيحية أفكاراً لا يكاد يصدقها عقل فى العصر الحديث إذا تم تأملها بشيء من الموضوعية فيقول: "عندما نستمع فى صباح الأحد إلى دقات الأجراس القديمة، فعندئذ نتساءل: أهذا ممكن ! إن ذلك كله من أجل يهودى صُلب من ألفى عام ، كان يقول إنه ابن الله ، وهو زعم يفتقر إلى البرهان" . وفى موضوع آخر يقول "فلنتصور إلها ينجب أطفالا من زوجة فانية..... وخطايا ترجع إلى إله ، ويحاسب عليها نفس الإله، وخوفا من عالم آخر يكون الموت هو المدخل إليه....لكم يبدو لنا كل ذلك مخيفا، وكأنه شبح قد بعث من الماضى السحيق، أيصدق أحد أن شيئا كهذا لا يزال يُصدق؟"[1].

كان نيتشه متحمسا للعلم ومؤمناً به إيمانا عميقا، وأن العلم ليس له حدود معينة يتوقف عندها . وأن الفرق الجوهرى بين العقلية الخرافية والعقلية العلمية هو اعتقاد الأولى بأن الكون يسير بالفعل وفق غايات الإنسان ، وما نهضت الروح العلمية إلا منذ اللحظة التى تخلى فيها العقل عن هذا الاعتقاد الواهم ، ووضع فيها الإنسان لنفسه شعارا جديداً هو: إذا لم يكن العالم يسير وفقا لغاياتي ، فلأجعله يسير وفقا لها ، بالعمل والجهد، لا بالأسطورة والخيال! وفى هذه اللحظة وحدها نستطيع أن نقول: إن العلم الحقيقى قد بدأ. فما العلم إلا محاولة منظمة لتسخير الكون لخدمة الإنسان ، وللتحكم فى تلك الظواهر التى كانت تبدو من قبل مستحيلة تماماً عن سيطرته. وإذا كان التقدم

(1) لمزيد من التفاصيل انظر :فؤاد زكريا ،نيتشه، مرجع سابق ، ص 129 -136.

العلمى الحديث قد عبر ضمنيا عن هذه النظرة الجديدة ، فإن الفلسفة قد تأخرت فى المجاهرة بها ، وفى التعبير الواعى عنها. ويرجع الفضل لنيتشه فى التصريح بما كانت تنطوى عليه النهضة العملية الحديثة ضمنا، وفى التعبير عن الفلسفة الكامنة فى كل تقدم أحرزه العقل البشرى ، وخلو العالم من القيم التى لا يخلقها إلا الإنسان ذاته ، و لا تضفيها على العالم إلا مطالبه وحاجاته.

ويرجع الهدف الذى كان نتيشه يرمى إليه من دعوته إلى انقلاب شامل فى القيم ، أن هذه الدعوة هى الخطوة الأولى الأساسية التى لا يمكن أن تقوم ثورة عقلية أو علمية بدونها، فالقول بنسبية القيم يفتح أمامنا السبيل الى محاولة تغييرها، ولا يجعل هذا التغيير مستحيلاً ، وأن أى سعى لتغيير الأوضاع التى يحيا عليها الناس ، سواء فى المجال الفكرى أو فى المجال الاجتماعى، إنما يفترض مقدما إيمانهم بأن المعايير التى يقيسون بها الأمور ليست معايير أزليه ثابتة، فرضت عليهم بقوه لا سلطان لهم عليها، وإنما هى معايير صنعها الإنسان لهدف معين، وفى وسعه أن يبدلها إذا شاء أن يضع لنفسه هدفا آخر.

نيتشه والأخلاق:

وجه نيتشه أعنف نقد له إلى الأخلاق ، فهو يناضل نضالا عنيفا ضد التراث الأخلاقى الذى أخذت به المجتمعات المتحضرة ، والذى كان يبدو راسخا متأصلا فيها ، وكأنه مجموعة من المبادئ الأزلية التى لا يجرؤ أحد على مناقشتها . وهو يرى أن الفلسفة متضامنة مع الدين فى مؤامرة تهدف إلى اقتلاع الحياة من جذورها ، وإحلال إرادة "إماتة الحياة" محل إرادة الحياة . لذلك كان الهدف الأول للاتجاه اللا أخلاقى عند نيتشه هو الخروج عن هذا التقويم السائد للسلوك الإنسانى " **الأخلاق - ى**" وهو التقويم الذى يؤدى فى رأيه إلى تجريد الإنسان رويدا رويدا من كل ما يحبب إلى نفسه الحياة ، والى بعث روح العزوف عن العالم فى الإنسان . كما أن المبادئ الأخلاقية كلها تلمس فيها نوعا من الخداع والتضليل ، وتعطى إحساساً غامضا بأن ظاهر المبدأ غير باطنه ، وأن ما يدعوك إليه مخالف للنتائج الفعلية الناجمة عنه ، إذ إن غايتها النهائية

مستحيلة التحقيق ، ومن الطبيعى أن تنطوى الأخلاق على خداع ذاتى تسببه تلك الهوة السحيقة بين غايتها وبين ما تستطيعه الطبيعة البشرية .

ويضرب نيتشه مثلا بفكرة الشفقة التى تدعو إليها الأخلاق الدينية بوجه عام ، وتجعل منها شعورا نبيلا يحتل موقع الصدارة من مشاعرنا الأخلاقية ، ولكن هل هى شعور أخلاقى نبيل بحق ؟ إن ظاهرها هو التعاطف مع الآخرين ، والرغبة فى مشاركتهم كل أحاسيسهم ولكنها تنطوى مع ذلك على نفس الخداع الذاتى. فما هى فى الواقع إلا أنانية مستترة. ذلك لأننا كثيراً ما نشفق على غيرنا لخوفنا من أن يحدث لنا مثل ما حدث لهم ، بحيث إننا نهدف من عطفنا عليهم إلى الدفاع عن أنفسنا ضد احتمال وقوع مثل هذا الضرر لنا ، أو نحمى أنفسنا من الشعور المؤلم الذى ينتابنا كلما صادفنا مثل هذه الأزمات. فالمسالة فى الواقع ترتد إلينا نحن فى نهاية الأمر، ونحن نشفق وفى ذهننا حالتنا نحن ، لاحالة الآخرين [1] .

كذلك الحال فى **فكرة الغيرية** ، التى ترتبط بالشفقة ارتباطًا وثيقا، بل تكون شرطها الضروري .فالغيرية فى ظاهرها تنم عن فيض من الكمال الذاتى ينتقل من الأنا إلى الآخر، فإنها فى حقيقتها ليست إلا وسيلة لإفقار الذات وإضعافها . فعندما يتجه الإنسان إلى غيره فهو يهرب من نفسه ولا يواجهها مواجهة صريحة . **فحب الجار** ليس تعبيراً عن كمال ذاتى فائض ، إنما هو **"حب سيئ للذات"** وذلك لأن مواجهة الإنسان لنفسه، وبذله كل جهوده لبعث الكمال فيها، هو أمر عسير إلى أبعد حد ، وكثيراً ما يحس المرء ميلا قويا إلى الهروب من مواجهة ذاته، والتحول عن سعيه إلى كمالها ، فتنحرف طاقته وفاعليته، وتتخذ شكل الغيرية.

إن نقد نيتشه لمبدأ الشفقة والغيرية لم يكن نابعا من سعيه إلى الإصلاح الاجتماعى الشامل، بل إن نقده للشفقة يرجع إلى أنها تُبعد الإنسان عن ذاته، وعلى ذلك فإن هدفه يتركز على الفرد وحده، وغايته أن يرد إلى الفرد كل مظاهر فاعليته، التى يعتقد أنها

---

(1) فؤاد زكريا، نيتشه ، مرجع سابق ، ص 78.

تتبدد إذا خرجت عنه إلى الغير . لذلك يجب أن تتركز قوة الإنسان فى داخله فحسب، وأن يهتم كل شخص بذاته فقط.

ويرى نيتشه أن **"فيض الأقوياء"** يجب أن يحل محل الشفقة، فالأقوياء هم الذين تمتلئ نفوسهم إلى الحد الذى تفيض معه على الآخرين دون أن يكون هذا الفيض غاية فى ذاتها، ودون أن تعبأ باتجاهه أو بمن سينالهم نفع منه.

وهنا لابد أن نوضح أن **القيم الدينية** عندما تدفعنا إلى الشفقة على الآخرين لا تهدف إلى مجرد العطف عليهم ، وإنما تمكينهم من النهوض بأنفسهم. وإن الشفقة لا تعنى السلبية التى تتمثل فى الاعتراف بالأمر الواقع والعجز عن تغييره والقيام بمحاولة جزئية للتخفيف من الضرر المحتوم بقدر الإمكان. بل إن الشفقة الحقيقية هى مواجهة الواقع ومحاولة تغيير الظروف السيئة التى جعلت الآخرين فى حالة يستحقون معها الشفقة . **ولقد ضرب لنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مثلا رائعا للشفقة الإيجابية**، حين جاءه من يسأل صدقة وكان قوى البدن ذا عافية. فما كان من رسول اللهﷺ إلا أن أمره بأن يأتى بما يملك (حِلس وقَعب) وباعهما الرسول، وصنع له قدوما يحتطب به من الصحراء، وأعطاه مهلة يراه بعدها رسول الله لينظر ماذا فعل؛ هل نجح فى هذه المهنة أم لا. وبعد انقضاء المدة المحددة جاء الرجل وقد أصاب عشرة دراهم، فقال له الرسول ﷺ: **"هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة؟ إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذى فقر مدقع ، أو لذى غُرم مفظع، أو لذى دم موجع"** [1].

أخلاق السادة وأخلاق العبيد:

يرى نيتشه أن الأخلاق السابقة هى أخلاق بالية لا تصلح لتوجيه الإنسان نحو المُثل العليا. ذلك لأننا نعيش فى فترة من فترات التدهور الأخلاقى، أو ما يسمى

(1) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : حامد محمود مرسى، المنهج الإسلامى لعلاج مشكلة الفقر، دار الطلائع ، القاهرة ، 2007، ص 63-66 .

بأخلاق العبيد. فعندما تسود المبادئ الأخلاقية الزاهدة الداعية إلى الهرب من الحياة ، تكون أخلاق العبيد . أما أخلاق السادة فهى أخلاق الأقوياء ، حيث تتضمن دائما ما يشعرنا بالقوة والوفرة والسمو الناشئ من إحساس الامتلاء، ومن ثم فإن أخلاق السادة مقابل أخلاق العبيد ، والتقابل بينهما يماثل التقابل بين **"رفيع"** و **"وضيع"**. والسمة التى تتميز بها هاتان القيمتان هى أنهما لا تعبآن مطلقا بأن يكون الفعل خيراً بمعنى أنه طيب، وإنما مقياس أخلاقية أى فعل هو أن يعبر عن روح القوة التى يستشعرها الإنسان فى ذاته، وأن يلائم تلك النفوس الزاهرة التى تشعر بأنها هى مانحة القيم وخالقتها .فإذا ما صدر عنها الخير ، فهو لا يصدر عن خوف أو إكراه أو ضغط ، وإنما يصدر عن إحساس قوى بالوفرة والقوة الفياضة الباذلة.

ويرى نيتشه أنه تأمل النظم الأخلاقية فى الأمم المختلفة ، وخرج منها بنتيجة واحدة، هى تناوب أخلاق السادة، وأخلاق العبيد فى السيادة. ومن هذه الزاوية وضع للتاريخ الأخلاقى للإنسانية تقسيما جديداً : ففى العصر اليونانى والرومانى تسود أخلاق السادة وتكون الغلبة للأقوياء، ثم تنتصر أخلاق العبيد على يد اليهودية والمسيحية، ويسود الضعفاء والمتخاذلون.

إن هذا التقسيم للتاريخ الأخلاقى للإنسانية غير صحيح بالمرة ، فالقوة فى تلك العصور التى تناولها نيتشه ، لم تكن قوة معنوية ، بل قوة مادية ، بمعنى أن الأقوياء لم يكونوا هم أصحاب المشاعر الأخلاقية الرفيعة ، الذين تفيض نفوسهم بالامتلاء المعنوى، والفيض الحيوى، بل كانوا هم المسيطرون على زمام الأمور، عن طريق قوة السلاح، أو قوة المال . إننا نعيب على كبار فلاسفة اليونان ، مثل أفلاطون وأرسطو، أنهم قد تغاضوا عن مساوئ نظام الرق القائم فى عصرهما الذى سيطرت فيه الأقلية الأرستقراطية على الأكثرية الضعيفة، والتى فى رأى نيتشه ينبغى أن تظل مستعبدة . ومن ثم فإن أرستقراطية هذه العصور لم تكن أرستقراطية معنوية أو أخلاقية، بل كانت القوة الغاشمة هى العامل الوحيد لسيطرة الأقوياء وعبودية الضعفاء . وهذا ما

يحدث الآن حيث تسيطر الولايات المتحدة الأمريكية على العالم بالقوة الاقتصادية والعسكرية الغاشمة.

نظام الرق اليونانى وهو أصلح النظم فى نظر نيتشه ، حيث أنجب هذا النظام العقول النظرية الكبيرة مثل أفلاطون وأرسطو، الذى دعى كل منهما إلى توفير الراحة "للأحرار" من الناس حتى يتفرغوا للمهام العقلية الكبيرة، فكذلك يدعو نيتشه إلى نوع من نظام الرق ، حتى يمكن أن توجد طبقة أرستقراطية تنهض على أيديها الحضارة الحديثة .

مشكلة المرأة :

يُلخص رأى نيتشه فى المرأة عادة بكلمته المشهورة "أذاهب أنت إلى المرأة؟ لا تنسَ إذن سوطك!" .ربما ترجع قسوة نيتشه فى رأيه فى المرأة إلى طفولته التى عاشها بعد وفاة أبيه مع أمه وأخته وجدته وعمتين عانستين، وكذلك فشل علاقاته النسائية بعد ذلك . لذلك كان إيمانه بأن المرأة بطبيعتها مخلوق ناقص، وفيها من العيوب الكامنة ما يحتم علينا ألَا نعهد إليها بأى عمل جدى. ومن ثم فإن طبيعة المرأة ذاتها عقبة فى وجه حركة تحرير المرأة.